

رحلتان للهند

الشيخ محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني

تقديم: علي المنتصر الكتاني*

ولد السيد الجد الشيخ محمد الزمزمي الكتاني بمدينة فاس بالمغرب الأقصى من سنة ١٣٠٥هـ في بيت شرف وعلم وجهاد. فوالده هو الشيخ محمد بن جعفر الكتاني صاحب المؤلفات العديدة منها "سلوة الأنفاس" في ثلاث مجلدات و"نصيحة أهل الإسلام" و"العلم النبوي" في ثلاث مجلدات و"الحديث المتواتر" وغيرها الكثير، إذ كان

* إن إدارة التحرير تشكر الأستاذ الفاضل علي المنتصر الكتاني حفيد الكاتب علي توفيره لنا هذه الكتابة النادرة عن الرحلتين إلى الهند على كتابة هذا التقديم.

عالماً فقيها محدثاً وقد ولد سنة ١٢٧٣هـ بفاس وتوفي بها سنة ١٣٤٥هـ. وجاهده شيخ الإسلام ومفتي المغرب الشيخ جعفر بن إدريس الكتاني (المولود بفاس سنة ١٢٤٤هـ والمتوفى بها سنة ١٣٢٢هـ) الذي ترك كذلك مؤلفات عدة في الفقه والدفاع عن المسلمين أهمها "الدواهي المدهية في الفرق الخمسة" وجد والده الفقيه.

العدل إدريس بن الطائع الكتاني وكان من المجاهدين الذين حاربوا الإسبان عندما غزوا المغرب وتوفي متأثراً بجراحة سنة ١٢٧٨هـ.

وهكذا أجداده كلهم من بيت علم وجهاد والعائلة هي سليلة الدولة الإدريسية من أبناء أمير المؤمنين يحيى الثاني بن أمير المؤمنين يحيى الأول بن أمير المؤمنين محمد الملقب بالمنتصر بالله بن أمير المؤمنين إدريس الثاني، مؤسس مدينة فاس بن أمير المؤمنين إدريس الأول مؤسس الدولة الإدريسية، بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب والحسن السبط هو سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها.

وأم الشيخ محمد الزمزمي الكتاني هي المرأة الصالحة المتقاة الورعة ابنة عم والده السيدة زبيدة بنت العالم العامل الشيخ عمر بن الطائع المذكور سابقاً.

وكان للشيخ محمد بن جعفر الكتاني والد المترجم دور كبير في الدفاع عن المغرب من تدخل الفرنسيين الذين كانوا يطمعون في استعمارها، وكان كما يقول رحمه الله: "سيوف العلماء ألسنتهم".

وقد سافر الشيخ محمد الزمزمي الكتاني لأول مرة حاجاً مع

والده سنة ١٣٢١هـ وعمره لايتجاوز ١٦ سنة. ومرّا في طريقهما بمصر وبلاد الشام. فكانت هذه الرحلة هامة في تربيته، التحق بعدها لطلب العلم بجامعة القرويين بفاس. وكان رحمه الله هو أكبر أولاد أبيه فاعتنى به، كما اعتنى بإخوته، عناية خاصة حتى يكون في مستوى سلفه علماً وعملاً.

وعند عودته من الحج، توفيت والدته السيدة زبيدة وتوفي جده السيد جعفر، وذلك سنة ١٣٢٢هـ، فكان يسميه عام الحزن. وساءت أحوال المغرب، وحاول والده إصلاحها، فلما يئس من ذلك قرّر الهجرة إلى المدينة المنورة بأهله وأولاده وزوج قبل ذلك ابنه السيد محمد الرمزمي بجدة السيدة الفاضلة فضيلة ابنة الحاج المكي ابن عبد الله أحد كبار وجهاء المغرب حينذاك، كما تأهل والده من جديد بأختها. وكانت تلك الهجرة الأولى للعائلة سنة ١٣٢٥هـ. ولم تدم طويلاً إذ جاءت أخبار من المغرب أن الملك عبدالعزيز الذي تقاعس عن الدفاع عن أرض المغرب من الاستعمار الفرنسي عزل وحل محله أخوه السلطان عبد الحفيظ وكان هذا الأخير عالماً أنشأ حركته على أساس الجهاد ولتحرير البلاد وذلك بمساندة أحد أقطاب العائلة الكتانية حينذاك الشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني رحمه الله.

وهكذا رجعت العائلة إلى فاس. ولكن سرعان ما تبين عن السلطان عبدالحفيظ خيب الآمال وأخذ يهيئ لدخول المستعمر،

فساءت علاقته مع الشيخ محمد عبدالكبير الكتاني حتى وصل به الحال إلى سجنه وجميع أهله رجالاً ونساءً وأطفالاً وتعذيبه إلى أن استشهد رحمه وكان ذلك سنة ١٣٢٧هـ. فدخل الشيخ محمد بن جعفر الكتاني مع السلطان حتى أطلق سراح جميع العائلة ثم قرر هجرته الثانية بأهله إلى المدينة المنورة سنة ١٣٢٩هـ. وفي المدينة المنورة تابع السيد الجدد دراسته على أيدي كبار علماء الحجاز وولد له بها أول أولاده، من بينهم سيدي الوالد الشيخ محمد المنتصر بالله وكان ذلك في ١٢ ربيع النبوي سنة ١٣٣٢هـ.

واستقرت العائلة في المدينة المنورة حيث أخذ يدرس الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في الحرم النبوي وقد وجد اعتناءً كبيراً من قبل السلطات العثمانية. وكما تابع السيد الجدد دراسته على يد علمائها. وكانت المدينة المنورة حينذاك مجمع علماء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً. فربطت العائلة علاقات وثيقة مع علماء المسلمين القادمين من الهند واليمن وبلاد الشام وأفريقيا وتركيا إلى آخره، قوت فيها انتماءها الإسلامي الذي يفوق انتماء البلدة والوطن ويقويه.

ولكن الأوضاع لم تهدأ قط. بل قامت بعد قليل الحرب العالمية الأولى ودخلت الدولة العثمانية مع الطرف الخاسر. وتدخل الشيخ محمد بن جعفر الكتاني وسيطاً بين الدولة والثائرين عليها حتى يتوحد المسلمون في مجابتهم لدول الكفر. لكن الدولة العثمانية انهارت في

الحجاز فاضطرت لترحيل أهل المدينة لعدم قدرتها على حمايتهم،
فهاجرت العائلة إلى دمشق، وكان ذلك سنة ١٣٣٦هـ. ولكن بلاد
الشام نفسها سقطت في يد العدو، فشمالها احتله الفرنسيون بما في ذلك
دمشق، وجنوبها احتله الإنكليز. فلم تعد تعرف العائلة إلى أين تتجه
ففكرت برهة الالتحاق بما تبقى من الدولة العثمانية بالأنضول وبصفة
خاصة مدينة أطنة، لكن مصطفى كمال انقلب على الإسلام وأهله
وأصبح هو المستعمر بعينه بعد أن ألغى الخلافة والشريعة واللغة العربية
وحرّفها إلخ... فضاقت الأرض على العائلة بما رحبت.

ورغم ترحيب أهل دمشق بصفة خاصة وأهل الشام بصفة أعم
بالعائلة واحترامهم الشديد لها، إذ كان الشيخ محمد بن جعفر الكتاني
يدرّس في المسجد الأمويّ فأحبه أهل البلد حبًّا جمًّا. لم تكن دمشق في
مركز المدينة المنورة بإشعاعها الإسلامي وارتباطها بأطراف الأمة
الإسلامية.

وقد أقامت العائلة في المدينة المنورة روابط محبة وإخاء في الله
وثيقة، مع كثير من علماء الهند وتجارها الذين كانوا يفتدون على
الحجاز، فأحب السيد الجدّ أن يزور الهند ويجدّد الصلة بالأحباب
والأصدقاء فأرسله والده مع شقيقه الشيخ محمد المكي بصحبة أحد
معاونيه الثقات، من المهاجرين الجزائريين اسمه السيد الحاج محمد رابع،
ليخدمهما ويساعدهما. وأرسلهما بصفة خاصة إلى صديقة في دار

الهجرة وأحد أخص تلامذته السيد أحمد حاجي سليمان الميمني، الذي اضطر إلى مغادرة المدينة المنورة والرجوع إلى بلده بومبي، كأحد أكبر تجارها. وكانت هذه الرحلة سنة ١٣٤٣هـ.

ولقد كتب السيد الجد هذه الرحلة وأحوالها بلغة سلسة شيقة. ويظهر منها العدد الهائل من أهل الحجاز الذين فرّوا من فتن الحرب إلى الهند، وحتى وجد بالهند عدد من المهاجرين المغاربة. فزار بالهند العلماء والأولياء أمواتاً وأحياء، وذلك في بومبي وضواحيها، وقبل الدخول إلى بومبي مرّ بكراتشي. ثم زار دهلي وديوبند ومدرستها وسهارنبور وكثير شريف، بعد أن مرّوا بأجمير شريف. ثم رجعوا إلى دمشق. والسيد محمد المكي شقيق الجد ولد رحمه الله بمدينة فاس سنة ١٣١٢هـ وتلقى العلم بالمغرب والحجاز والشام. وكان بعد ذلك من كبار علماء سوريا ورئيس علمائها ومن الدعاة الكبار والمدافعين عن الاسلام في سوريا إلى أن توفى رحمه الله بدمشق سنة ١٣٩٤هـ.

وعند رجوع الشيخ محمد الزمزمي والشيخ محمد المكي من رحلتها الهندية إلى دمشق لم يمكثا طويلا حتى قرر والدهما الرجوع إلى المغرب ولو لمدة قصيرة لزيارة الأهل بعد هذه الغيبة الطويلة (١٦ سنة).

وهكذا رجع الجميع إلى مدينة فاس بالمغرب سنة ١٩٤٥هـ حيث استعاد الشيخ الإمام محمد بن جعفر الكتاني كرسية كأستاذ في

جامعة القرويين ولكن لم يلبث بضعة شهور حتى أتاه الأجل المحتوم،
فالتحق بالرفيق الأعلى في شهر رمضان سنة ١٩٤٥ م. فخرجت مدينة
فاس بأجمعها في جنازته.

وبعد وفاته انقسمت العائلة قسمين. فالسيد الجد الشيخ محمد
الزمزمي الكتاني بقي بالمغرب وأصبح أستاذاً بعد ذلك في جامعة
القرويين إلى وفاته و أما شقيقه الشيخ محمد المكي فقد رجع إلى دمشق
حيث استقر هناك مع أهله إلى وفاته. وبقي معظم الإخوة الصغار
وأميها مع أخيها الأكبر في المغرب وهم السيد محمد الطائع رحمه الله
الذي أصبح بعد ذلك من كبار قضاة المغرب، وشقيقه السيد إدريس،
أطال الله عمره، وهو عميد العائلة الكتانية اليوم بالمغرب و أستاذ
جامعة ناضل من أجل إستقلال المغرب ثم من أجل الحفاظ على الهوية
الإسلامية للبلاد مدافعاً عن الشريعة الإسلامية واللغة العربية. أما
شقيقيهما السيد عز الدين أطال الله عمره فهو من رجال التعليم، وأما
السيد يحيى، رحمه الله، فقد كان من عدول فاس المرززين، وشقيقه
السيد سعد الدين، رحمه الله، من رجال التعليم بفأس كذلك.

وكانت العلاقة بين الشقيقين السيد محمد الزمزمي بفاس
والسيد محمد المكي بدمشق وثيقة جداً، والمراسلة جارية دون انقطاع،
بينهما. وقد زار السيد محمد الزمزمي شقيقه في دمشق سنة ١٣٤٧ هـ
ثم زاره سنة ١٣٥٣ هـ. وقررا زيارة الهند مرة أخرى لتجديد العهد

بالاصدقاء والدعوة إلى الله. فبدأ زيارتهما لبومبي كالعادة. ثم ذهبا إلى حيدرآباد بدعوة من وزيرها الأول، وركزا نشاطهما وخطبهما على الدعوة للاستقلال والرجوع لتعاليم الإسلام وتعليم اللغة العربية مما جعل نظام حيدر آباد يخاف من لقاتهما فذهب إلى بنكلور وميسور قبل رجوعهما إلى بومبي ثم إلى دمشق.

وبعد هذه الزيارة رجع السيد محمد الزمزمي إلى المغرب حيث استقر معلما وداعيا. وفي سنة ١٣٧٠ هـ ذهب حاجا لبيت الله الحرام ومر على أخيه في دمشق فوافاه الأجل المحتوم في بيت أخيه في شهر صفر عام ١٣٧١ هـ وعمره لا يتجاوز ٦٦ سنة هجرية رحمه الله رحمة واسعة.

ولقد خلف السيد الجدّ عدة مخطوطات في فنون شتى، لم تطبع بعد، منها تاريخ حياة والده وحياته في ثلاث مجلدات وجمعها وحققها كاتبه، منها هذه الرحلة الشيقة التي نشرها لأول مرة. كما خلف نخبة من الأبناء كلهم علماء ومحاهدين عاملين وهم القاضي السيد محمد الكامل رحمه الله، والفقير الجليل والدنا السيد محمد المنتصر رحمه الله، والأديب الجامعي السيد محمد الناصر، رحمه الله، والأديب السيد محي الدين الذي توفي في حياة والده والأستاذ الجامعي والسفير السابق السيد جعفر أطال الله عمره، والقاضي السيد محمد عبد الرحمن، أطال الله عمره، والعالم المختص في العلوم الزراعية السيد أحمد، أطال الله عمره.

رحم الله السلف وجعل البركة في الخلف.

